فنلندا : هيلما جرانكفيست والفولكلور الفلسطيني

« ان الدراسة الانثولوجية للاراضي المقدسة هي دراسة جذابة بالاضافة الى انها واجب » . بهذه الكلمات قدمت جرانكفيست لكتابها « تقاليد الزواج في قرية فلسطينية » . وتشيع هذه الروح في جميع ابحاثها المنشورة بالانكليزية والتي أتيح لي الاطلاع عليها وهي الولادة والطفولة ، مشاكل الطفولة ، وتقاليد الوفاة والدفن بالاضافة لتقاليد الزواج . ان كل من يقرأ ابحاثها الاربعة هذه — والتي جاءت في خمسة كتب منفصلة — ليحس بالاهمية الخاصة التي منحتها الدكتورة هيلما جرانكفيست لدراسة الحياة الاجتماعية والحياة الشعبية في فلسطين ، كما انه سيحس بأنها عالجت الموضوع بروح من اغرمت واعجبت بحياة الناس وتقصتها بعناية علمية فائقة واعتبرتها واجبا ورسالة تستحق ان تصرف من اجلها السنوات الطوال .

تقول جرانكفيست : « ان العمل الذي تم في هذا المجال عمل ذو قيمة عظيمة . ولكنه يجب علينا ان نعترف ان هناك عملا كبيرا ما زال ينتظر من يقوم به . ولقد سرني كثيرا ان اجد تفهما كبيرا لتلك القيمة والاهمية . لقد كانت مهمتي الحقيقية علمية ، فكان علي ان ادرس دراسة موضوعية للثقافة العربية في فلسطين وذلك لاساعد في فهم ثقافة عهد التوراة ومن ثم اصول المسيحية . ان العادات والتقاليد وسائر مناحي الحياة الشعبية في فلسطين تظهر امورا غاية في الجاذبية والاهمية. وقد أظهرت لي قرية ارطاس الفلسطينية — بالقرب من بيت لحم — أنها مكان مناسب للعمل فهي تقع وسط منطقتين فولكلوريتين متمايزتين : منطقة بدوية واخرى قروية . وهناك قررت أن أبدأ دراستي الميدانية » .

في الثاني عشر من شهر آب من عام ١٩٢٥ وصلت جرانكفيست الى القدس وذلك لمواصلة دراستها لموضوع: « المرأة في عهد التوراة » واثناء معالجتها للموضوع اقتنعت جرانكفيست انه لا يمكن الحصول على نتائج كافية بالاعتماد على المراجع الادبية في المكتبات الاوروبية . وكان لها أمل في ان تتاح لها الفرصة في ان تلاحظ الحياة وظروف المعيشة اليومية في الاراضي المقدسة نفسها ، فان ذلك سيطرح ضوءا كافيا على العديد من المشاكل الحقيقية . وتلك هي الامكانية الوحيدة في التعمق في ذلك الموضوع .

وقد أتيح لجرانكفيست ان تشترك في مساق دراسي باشراف الاستاذ أ. آلت في نفس الخريف الذي وصلت فيه الى القدس من آب لتشرين الاول وذلك في المعهد الالماني الفلسطيني في القدس . وبالرغم من ان موضوع المساق كان بشكل رئيسي يدور حول الاثار فانه كان بالنسبة لجرانكفيست مقدمة معقولة لمعرفة مشاكل البحث في الحياة الثقافية الفلسطينية .

وقد اجتذب باحثتنا الى فلسطين سحر المكان الذي ينعكس في ما قرأته في الكتب الدينية عن المنطقة الجغرافية التي نزلت فيها مما رسم في ذهنها صورة جذابة للديانات الشرقية ، وقد ولد ذلك الشغف الزائد الذي ملك عليها حواسها للتعرف على حياة الشعب الفلسطيني . كما انها كانت قد اعجبت بحياة الشرق من خلال قراءتها لكتاب الف ليلة وليلة . وكان هدفها من ذلك ان تتعرف على حياة الشعب العربي بشكل عام . واستمرت توسع من دائرة اطلاعها في هذا المجال فأخذت تقرأ الكتب والابحاث الفولكلورية والاجتماعية التي اتخذت من دراسة الفولكلور في مصر موضوعا لها مثل كتاب « لاين » عن الحياة المصرية الحديثة وكتاب كال شميدت عن الحياة الشعبية في فلسطين وكتاب ليون هارد باور عن الحياة الشعبية في بلاد الانجيل وكتاب برجشتراسر عن اغاني رمضان في القاهرة. وقد ساعدها على التعمق في موضوعها تخصصها الاصلي الذي توفرت على دراسته في الجامعة وهو التربية وعلم النفس . وسنرى فيما بعد كيف انها استغلت قدراتها في هذا المجال في دراسة مشكلات الطفل النفسية . وبعد ذلك درست علم الانتروبولوجيا الاجتماعية في كل من برلين وليبزج ولندن وهي تجيد اللغات الالمانية والفرنسية والسويدية والانجليزية بالاضافة الى اللغة الفنلندية لغتها الاصلية. وان من يطلع على كتب جرانكفيست التي تناولت فيها دراسة الفولكلور الفلسطيني سيرى كيف أنها استفادت من العديد من المراجع بلغات شتى واثبتت في اواخر كتبها مقتبسات باللغات الاصلية لتلك الكتب .

وبين عامي ١٩٢٥ — ١٩٣١ وفدت جرانكفيست الى فلسطين مرتين لفترة تعادل ثلاث سنوات . وقد